اللُّغة العربيَّة المُعاصِرة ـ بين الطُّموح والتَّحدِّي

م.د محمد مزعل خلاطي / جامعة واسط / كلية التربية / قسم اللغة العربية

يُقصد بالعربية المعاصرة :هو المستوى الفصيح من اللغة.ووصفها بعضهم بالمعاصرة للدقة في التعبير عن اللغة التي تعاصرنا ، وتعيش على ألسنتنا ، ومعاصرة مأخوذ من عاصرتَ فلاناً ، أي : عشتَ معه في عصر واحد(١).

ويُطلق على العربية المعاصرة مصطلحات عديدة أشهرها :(الفصحى المعاصرة) (٢)،و(فصحى العصر) (٣)، و(العربية المعاصرة) (٤) ، و(العربية الفصحى الحديثة)(٥) و(اللغة العربية المشتركة)(٦)و(اللغة العربية المعاصرة)(٧) ، و(العربية الفصحى) (٨).

وإنَّ لكل باحث مصطلحاً لبحثه ، ومن هذا جاء اختيار الباحث في أن يعتمد اللغة العربية المعاصرة ؛ لإنَّ استعمال كلمة فصحى قد يوحي بأنَّه يبحث بالقضية القديمة الجديدة ، أي:قضية الفصحى والعامية ،فحدَّد زمنها بالزمن (الحديث والمعاصر).

فالعربية المعاصرة قد بُنِيَت على أصول العربية الفصحى بمستوياتها جميعًا سواء أكانت الصوتية أم الصرفية أم النحوية أم لدلالية ، فعرفت بأنّها (فصحى كلاسيكية مستمرة) مع تغيير وتطوّر ضمن حدود لاتتجاوزها على خلاف معظم اللغات الحية التي يمكن نظرياً أن تتغيّر صفحة وجهها بصورة فيها تباين ملحوظ ، يجعلها بعد أمدٍ تقرب من أن تكون لغة أخرى.(٩).

ومن المهم أن يلاحظ أنَّ العربية تقوم أساسًا على الإعراب الذي يُعدُّ خصيصة بارزة من خصائص الفصحى ، وعلى صحة التراكيب النحوية وعلى سلامة الأبنية الصرفية والأداء الصوتيّ، أمَّا المفردات فهي أكثر العناصر اللغوية القابلة للتطوّر في اللغات الإنسانية ؛ لذلك يمكن أن نعدّ كلَّ استعمال يحرص على الإعراب ويراعي القواعد الصرفية والصوتية أداء ، على الرغم من تعدُّد مستويات الفصحى.

فاللغة الفصحى تختلف باختلاف فنون الأدب : النثر ، والشعر ، والخطابة ، والقصة ، أمّا لغة أصحاب العلوم والقانون والاجتماع فإنها مجرّد وسيلة ؛ وترتّب على ذلك أن تصبح لكلّ من هذه الفنون خصائصها اللغوية في النظم والبناء والتركيب .(١٠) ،لكن داخل إطار مستوى الفصحى.

إذن اللغة الحديثة هي لغة مكتوبة لاتنطق إلّا في مجالات محدودة وحدود ضيقة ، حتى أُطلق عليها (لغة الكتابة) ، ووصفها الأستاذ محمّد تيمور بانَّها : ((لغة كتابة لالغة كلام؛ ولو كانت لغة كلام لعاشت في السوق والبيت)) (١١). وعلى الرغم من أنَّ اللغة المكتوبة تمثل اللغة العربية الحديثة التي

حظيت ببعض المزايا ،إلاّأنّها أقل عرضة للتغيير من المنطوقة وعلى درجة عالية من التماسك ؛ لإنَّها لغة مُعدَّة ، ويمكن الرجوع إليها . فهي الأمين على معارف الأمة وعلومها، إلاّ أنَّ اللغة المكتوبة لها عيوب مؤثرة كونها

محرومة من المسرح اللغويّ وطريقة الأداء لاسيما أنَّ حرمانها من الجانب الصوتي يفقدها جانبًا مهما من تأثيرها على المتلقي، فالكلمة المطبوعة من بين الوسائل الجماهيرية ، وهي الوسيلة الخالية من الصوت البشري وبخلوها منه تفقد العنصر الذي تستمده من لغة الأجهزة المرئية والمسموعة دفءاً وتأثيراً(١٢).

ولاينتهي الأمر عند استعمال العربية المعاصرة في شؤون الحياة بل تمتد المشكلة إلى إسلوب تعليم العربية المعاصرة ، فمن المؤسف أن يتعلمها الطلبة كتابة وعن طريق القواعد والأحكام النظرية.

فاللغة مهارة لاتتعلم عن طريق القواعد والأحكام النظرية أو درس اللغة وحدها ، وإنما تتعلم عن طريق الاحتكاك والممارسة والتطبيق والتدريب ، بعد استكمال عدَّة الاستماع والاختزان ؛ وكان نتيجة ذلك أن أصبحت العربية المعاصرة فرسًا حرونًا وأداة عصية في أيدي جمهور المتعلمين والمثقفين الذين لايحسنون التعبير عن ذات أنفسهم (١٣).

وعلينا أن نعلم في هذا المقام أن ّ الكتابة محاولة تقريبية لتسجيل الواقع الصوتيّ ، وهي لاتطابقه تماماً، وقد نتج عن هذا أمران :

أولاً : تعدّد احتمالات النطق للكلمة المكتوبة فلايتحدّد نطقها إلاّ بعد فهم السياق .(١٤) فنحن في اللغة العربية يجب أن نفهم أولاً لنقرأ قراءة صحيحة.

ثانيًا: إنّ القاريْ الذي يتلقَّى الكلمة لأوّل مرة عن طريق العين يجتهد في كيفية نطقها ، وقد يصيب باجتهاده أو يخطئ ؛ فخلق الاجتهاد هنا فوضى واضطراباً لامثيل لهما في أي لغة أخرى يضاف إلى ماسبق أنَّ اللغة المكتوبة تتطلب مجهوداً للقراءة ، وهو مجهود ، قد يصبح عبئاً على بعض الناس بسبب ما لديهم من عقبات عاطفية أوعيوب بدنية أو نقص في التدريب(١٥). وبالنتيجة فاللغة المكتوبة وقفٌ على مَن يحسن القراءة والمعرفة ، كلُّ هذا جعل العربية المعاصرة (اللغة المكتوبة) تعاني من صور التحريف والتشويه المختلفة ، حتى لانجد إلاّ لغة مهلهلة تحسُّ بالغربة بين أبنائها (١٦).

إنَّ اللغات ترتبط بأقوامها ففي قوتهم قوة لها ، وفي ضعفهم ضعفٌ لها ومحنة العربية المعاصرة من محنة أهلها ،فالتخلف الحضاريّ لأهل اللغة العربية جعل العربيّ عاجزاً عن التعبير عند هذا الطوفان الحضاريّ من المخترعات الجديدة ولم يكن أمام الإنسان العربيّ بدٌّ من استعمال المواليد الحضارية بأسمائها الأجنبية ، كما سمّاها أهلها بلغتهم ، وعلى الرغم من جهود المجامع اللغوية في ترجمة المصطلحات العلمية وأسماء المخترعات الحديثة ، إلاّ أنَّ الواقع اللغويّ قلّما يستجيب لذلك ، فالمشكلة هي إنّنا مستهلكون للعلم لامنتجون ، ومواليد العلم تولد على غير أرضنا وبأيدي غيرنا ، وصاحب

المولود هو الذي يسميه.. فالذي يشكّل عنصراً صناعياً في معمل من المعامل هو الذي يعطيه تسميته العلمية .(١٧) والأمثلة على ذلك كثيرة نحو : (كاميرا ، ستلايت ، موبايل ...الخ)، يضاف إلى ماسبق إنَّ شعور بعض المثقفين بأنَّ اللغة الأجنبية لغة أهل الحضارة والتقدّم ، يجعلهم يلجؤون إلى تطعيم حديثهم بأسماء وتعبيرات أجنبية ، كدليل على علو كعبهم في العلم وسمو ثقافتهم وماذلك إلاّ لون من التلوث اللغويّ انتشر بين المتعلمين في مجالات مختلفة ، هذا فضلاً عن تأثيرلغة الإعلام بوجه عام المقروءة والمسموعة والمرئية على المتلقي من تلوين معجمه اللغويّ بكلمات أجنبية وبعض الأخطاء اللغوية ؛ لما للغة الإعلامية من طبيعة خاصة تخضع لظروف العمل الإعلامي ذي الإيقاع السريع حيث الحاجة إلى ملاحقة الكثير من الأخبار والأحداث والتعبير عنها بالسرعة نفسها ، فإذا انتقلت إلى مجالات الحديث بين المتخصصين في اللغة العربية ، نجدهم أيضاً يستعملون العاميات في التعبير عن ذات أنفسهم وأعضاء المجامع اللغوية يناقشون مشكلات العربية ويضعون لها حلولا لتطويعها بلسان عامي فصيح. ومعظم الجامعات العربية تدرس العلوم بلغات أجنبية مع هجر اللغة العربية تماماً ، ممَّا أثَّر في لغة الدارسين وأدخل كثيراً من الكلمات الأجنبية وأضعف اللغة الأم عندهم ، وأوجد فيها الكثير من اللحن وهانت اللغة على أهلها حتى صار الخطأ فيها لايُخجل أحداً.

ومن كل ماأسلفنا يتبين لنا أنّ الواقع اللغويّ العربيّ المعاصر واقع مضطرب باضطراب أهله اجتماعياً وسياسياً واقتصاديًا . وإنَّه في الحقيقة منعزل عن سياقه وبيئته الطبيعية ؛ لذلك وُصف بالجمود وماهو بجامد بذاته ، وإنّما بجمود أهله إذ حرموه أن يمارس في حياتهم فعزلوه ، في حين إنّنا نتكلَّم العامية بطلاقة ، هل خُلقنا بها ؟ لا ، لكنَّنا نستعملها في شتَّى مناحي الحياة ، نتكلّم بها ليلاً ونهارًا فتُطبع في أذهاننا ؛فيأتي الكلام بعد ذلك على منوال ماانطبع في أذهاننا وترتَّب على ذلك أن أصبحنا مهَرَة في الحديث بالعامية بفضل الممارسة ، مقابل العجز التام عن الحديث بالعربية ، لعزلها عن مجال الممارسة اللغوية بين الدربة والمران ، إلى درجة أن يعجز المتخصصون فيها عن الحديث بها في قاعة الدرس اللغويّ وشرح حفظ قواعدها وتدريسها ، والسبب في ذلك إنَّ القواعد تدرّس منعزلة عن مادتها وممارستها .

ويضاف إلى ذلك سبب آخر فكما أشار العالم اللغوي الفرنسي (أندريه مارتينيه) بقوله: ((إنَّ هناك مشكلات لغوية جديدة في العالم العربي من هذه المشكلات اللغوية مشكلة وحدة اللغة العربية ، فهناك اللهجات المصرية والسورية والمغربية وغيرها من اللهجات العربية التي تحلُّ مشكلاتها (١٨) .

وعلى الرغم من محاولة كثيرمن المتخصصين لتأسيس جمعيات مختلفة للاهتمام بالعربية من خلال وضع المؤلفات لمعالجة جوانب القصور عند كلّ متعامل مع الكلمة الحية من

المعاصرين (١٩) ، لكن الجميع متفقون على الواقع المرير للغة العربية ، وبقي هذا الواقع مـراً للعربية المعاصرة ، إن لم يزدد سوءاً . ومن المؤسف حقًّا أن يقف قسم من الأدباء والمفكرين العرب وراء دعم إحلال العامية والابتعاد عن الفصحى بادّعائهم جمودها وصعوبتها وبداوتها وتخلّفها عن حاجة العصر ؛ فالعامية ،في زعمهم تمتاز بالسهولة والمرونة والقدرة على التعبير عن مطالب الحياة العصرية .(٢٠)

وللدفاع عن لغتنا العظيمة نستشهد بقول أبي حيان التوحيديّ ، في الليلة السادسة من كتاب الإمتاع والمؤانسة عن اللغة العربية :((قد سمعنا لغات كثيرة _ وإن لم نستوعبها_ من جميع الأمم فما وجدنا لشيء من هذه اللغات نصوغ العربية ، أعني الفرج التي في كلماتها والفضاء الذي بين حروفها ، والمسافة التي بين مخارجها والمعادلة التي نذوقها في أمثلتها ، والمساواة التي لاتجحد في أبنيتها ، وإن شئت أن تعرف حقيقة هذا القول وصحّة هذا الحكم عرض اللغات الذي هو بين أشدّها ،تلابسًا ،وتداخلاً وترادفًا ،وتعاضلاً، وتعسُّرًا، وتعوُّصًا، وإلى مابعدها ممّا هو أسلس حروفًا، وأرقّ لفظًا ، وأخفّ اسمًا ، وألطف أوزانًا ، وأخضرّ أعيانًا ، وأحلى مخرجاً ، وأجلى منهجًا ، وأعلى مدرجًا ، وأعدل عدلاً ، وأوضح فصلاً ، وأصحّ وصلاً إلى أن تنزل إلى لغة بعد لغة ، ثمّ تنتهي إلى العربية ، فإنَّك تحكم بأنَّ المبدأ الذي أشرنا إليه في العوائص والأغماض ، سرى قليلاً قليلاً حتى وقف على العربية في الإفصاح والإيماض)) (٢١).

فاللغة العربية لغة وعي ، ولغة شهادة ، وينبغي إنقاذها سليمة بأي ثمن ؛ لأنها حفظت مخلفات الأمم وتراث الإنسان في العلوم واستوعبت آثار العلماء والفلاسفة ، فقد نُقلت مؤلفاتهم إلى العربية من اليونانية والسريانية والفارسية والهندية والنبطية ، لاسيما كتب أفلاطون وأرسطو وآخرين يزيدون على عشرين من الفلاسفة الطبيعيين والرياضيين وغيرهم في علوم الطب. (٢٢) .

ومن الطبيعي أن يقترن الاعتزاز باللغة العربية على أساس أنّها لغة التنزيل وهي لغة الأمة التي اختارها الله تعالى من دون سائر الأمم لتحمل مسؤولية نشر الرسالة والدعوة إليها، وقد تميزت ا للغة العربية بفضلها على بقية اللغات ،كما تميّز العرب بفضلهم على بقية الأمم.

فيقول المستشرق ماسينون في بحوثه ومحاضراته :((اللغات الهندو أوروبية إنما جُعلت للتعبير عن نظام العالم الخارجي ، نجد اللغة العربية وكأنما جُعلت لكي يتذوّق أصحابها مقصداً من المقاصد الآلهية)).وقال أيضاً: ((العربية تملك دايلكتيقا المعجزة التي ترنو إلى الأبدي ، وتصرف النظر عن المتغيّر وعن كلّ ماهو زائل ، ولما كانت العربية هي المصدر الوحيد لدى العرب للوصول إلى الفعل الإلهي ، فقد أحبها أهلها حبّاً راسخًا عميقاً))، وقال : ((إنَّ في اللغة العربية استعداداً للرؤية الجوّانية يتذوّقه من نشأ على التحدّث بها ، وفي العربية بفضل تركيبها الداخلي وطراز الخلوة الذي توحي به ، قدرة خاصة على التجريد والنزوع الى الكلية والشمول ومن هنا كان للعرب الفضل في اكتشاف رموز

الجبر وصيغ الكيمياء والمسلسلات الحسابية ،ثمّ إنَّ اللغة العربية لغة الغيب والإيحاء ، تعبّر بجمل قصيرة مركَّزة عمّا لاتستطيع اللغات الغربية أن تعبّر عنه إلاّ في الجمل الطويلة الفضفاضة)) .(٢٣)

وكتب أيضاً العالم الفرنسي البرفسور هنري لوسيل داعيًا إلى تعليم اللغة العربية في المدارس الفرنسية مبيناً إنَّ هذه اللغة تيسّر الملاءمة السمعية مع اللغات الأخرى ، فقال :((إنَّ التلميذ أو الطالب يجد في اللغة العربية معاني لغوية تختلف اختلافاً كبيرًا عن معان الفرنسية أو اللاتينية أو أي لغة أوروبية . وعن طريقها يتعرّف المتعلّم إلى عقلية العرب ، يجد نفسه أولاً أمام الأبجدية العربية ، وربما كان فيها بادئ الأمر موضع للنقد ، ولكنه سرعان مايجد لها جاذبية خاصة. ويستوقف نظري في الوقت نفسه سير الكتابة العربية من اليمين إلى الشمال ، ولكن هذا السير يبدو مطابقاً لحركة فسيولوجية أكثر إتفاقاً مع الطبيعة ، ثمّ إذا به يكتشف كلمات ذات أصول ملحنة واضحة ونسقاً (مرفولوجيًا) مبتكرًا داخل الكلمة ، يستبعد كلّ إضافة خارجية من المقاطع لأوائل الكلمات أوأواخرها ، ويتيح ثروة من الاشتقاق من الأصل الواحد . وتقدّم اللغة العربية أيضاً نسقاً من قواعد الإعراب بسيطاً وفيه قدر كبير من المرونة ، كما تقدّم أساليب في تركيب الكلام تجمع بين السذاجة والدقّة ونسقًا من الأفعال يتسم بالبساطة ...الخ)). (٢٤)

وقال أيضًا :((... إنَّ دراسة القرآن ، ولو كانت دراسة سطحية تكشف للتلاميذ شيئاً فشيئًا تصورًا جديدًا للعالم والدين الإسلامي يسري في حضارة القرآن كلّها ، وتلك ظاهرة قد تجوهلت كثيراً فإذا تعمقنا استطعنا أن نفهم إلى حدّ كبير مايجري في العالم العربي في أيامنا هذه)) . (٢٥)

وقال ماسينيون : ((في اللفظ العربي جرس موسيقي لا أجده في لغتي الفرنسية)) (٢٦.))

هذه شهادات عن اللغة العربية من عالمين غربيين فاضلين غير متهمين بالتحزّب لنا ، وعلينا أن نراجع أنفسنا ونكف عن ترديد آراء تقليدية عن قصور لغة وسعت كتاب الله العزيز لفظًا وغاية.وهناك لغات كثيرة ، لاتزال تحيا بيننا ، وفيها من ظواهر الإعراب المعقد مايفوق إعراب العربية بكثير ، فهذه اللغة الألمانية مثلاً ، تقسّم أسماءها اعتباطًا إلى مذكر ومؤنث ، وجنس ثالث لاتعرفه العربية ، وهو (المحايد) ، وتضع لكلّ واحد من هذه الأجناس الثلاثة ، أربع حالات إعرابية ، هي حالات الفاعلية والمفعولية والإضافة والقابلية . والحالة الأخيرة لاتعرفها العربية، وهي إعراب المفعول الثاني ، فهي من حالات المفعولية في العربية ، وليست حالة خاصة فيها .وتلك هي حالات إعراب الاسم المفرد المعرّف في الألمانية ، وكذلك المفرد المنكّر له أربع حالات أخرى ، والجمع المعرّف والجمع المنكّر . وبناء الجملة في اللغة الألمانية له نظام صارم ، فالفعل يحتل فيها المرتبة الثانية دائماً إلاّ في الجمل الفرعية ، كالجمل التعليلية مثلاً فإنَّ الفعل يؤخَّر فيها إلى نهاية الجملة.

كلّ هذا ردّ على بعض من مثقفينا العرب الذين يسود بينهم شعور مدمر ، بأنَّ لغتنا العربية الفصيحة لغة معقدة القواعد ، صعبة التعلّم ، كثيرة الشذوذ في مسائلها وقضاياها ، حيث التحدُّث بها يكون عبئًا ثقيلاً عليه.

وفي كلام للعالم اللغوي الشهير (فندريس) يقول فيه: ((الواقع إنّنا لانعلم إطلاقاً لغة قد قصرت عن خدمة إنسان عنده فكرة يريد التعبير عنها)). ثمّ يقول عقب هذا ((فلانتنصت إذن إلى أولئك المؤلفين العاجزين ، الذين يحملون لغاتهم مسؤولية النقص الذي في مؤلفاتهم ؛ لأنّهم هم المسؤولون على وجه العموم ، عن هذا النقص)). (٢٧)

وهذا ردّ على الذين يقولون أنّ اللغة العربية قاصرة عن استيعاب علوم العصر ، ونقول إنَّ اللغة قيمتها في تمسك أهلها بها ، ورواجها بينهم ، وتداولها على ألسنتهم واحترامهم إياها ، وثقتهم بها في حمل أفكارهم ومعتقداتهم ، والتعبير عن انفعالاتهم وعواطفهم ، واستعمالهم إياها في كلّ مايعنّ لهم من شؤون الحياة السهلة ، أو القضايا المعقدة .

وقد ذهب من المستشرقين الأجانب الثقات إلى إنَّ اللغة العربية أفضل من زميلتيها الكبيرتين اللغة العبرية واللغة السريانية لو تمّ مقارنتها بين مجموعات اللغات السامية ، ولقد دلُّوا على ذلك ، بقولهم : ((أنّها السابقة بالوصلة ، والآخرة بالنبوة)). وهم يريدون بالوصلة المحافظة على خصائص اللغة السامية الأصيلة التي تفرعت عنها اللغات السامية المختلفة ويضربون لذلك الأمثال باحتفاظ الهجاء العربي بثمانية وعشرين حرفًا و٣٢٧٦أصلاً ثلاثيًا مجردًا أو ٤١٨٠ إذا أُضيفت إليها الأصول الثنائية المزيدة ، وتتعدد أشكال الأفعال فيها ... إلى غير ذلك ممّا نجده ناقصًا في أخواتها ...وأمّا أنّها الأخيرة بالنبوة ، فالمقصود هنا هو الثقافة بالمعنى العام .ولنضرب لذلك أمثلة بالأصل الساميّ الثلاثيّ نحو (رحم) فمعناه السريانيّ :(المحبة) والعربيّ :(الشفقة) ، ومثلها (صبر) معناه العبريّ :(الترجي) والسريانيّ : (التفكُّر) والعربيّ :(الإمساك) وكذلك الأصل (عشق) معناه العبريّ :(التشاغل) والسريانيّ:(الحزن) والعربيّ: (الولع) فالصعود بمعاني هذه الأصول وتقويمها في العربية واضح من المقارنة. (٢٨)

وأمَّا في علوم اللغة فإنَّ الفكر السامي لم يصل إلى علم العروض إلاّ عند العرب ، وفي علم النحو كان في تعميم الإعراب من الأسماء وإلى الأفعال المضارعة ، بل إلى الجمل التي لها محل من الإعراب ، كان في هذا التعميم مايدلّ على إنَّ فلسفة توحيد النحو والصرف لم يصل إليها غير العرب .

وقد ردّ الدكتور الوافيّ على من انتقد الثقافة العربية وعلى وجه الخصوص بقيمة الأدب العربيّ ، إذ اتهمه المنتقدون بأنَّه أصوات وألفاظ وإيقاعات فارغة بلا معنى وثانيهما قائم على مايدّعونه من عدم وجود عيون كبيرة في الأدب العربيّ كالألياذة عند اليونان ، فقال لمن انتقد قيمة الأدب العربيّ : هو حسن الألفاظ في البلاغة العربية وثبوت الأصول اللغوية فيها ، وتنوع الصيغ.(٢٩)

وأما الاعتراض الثاني ، فقال : ((فما نظنه يقوم إلاّ عند من يأخذون إنتاج الفكر والروح بمقياس الكم ، ويخضعونه للثقل والمادة ، فيحكمون بحسب عدد المجلدات والأسطر ، ومع ذلك فإن عدد الأبيات الشهيرة بما تحمله من ثروة لايعدو في اللإلياذة المائة بيت ، وماتبقى بعد ذلك ليس إلاّحشواً وتطويلاً وتصنّعًا ، وباستطاعة العرب أن يفاخروا غيرهم من الأمم بما في أيديهم من جوامع الكلم التي تحمل من

سموالفكر وأمارات الفتوة والمرؤة مالامثيل له.وأعجاز التأليف عند العرب يأتي من الأيجاز الذي كأنّه تركيز بالتقطير)) (٣٠).

فالنظرة الدونية للغة العربية وأهليها بدت واضحة عمقاً واتساعًا في السنوات الأخيرة حتى ليكاد المتخصص بالعربية أو المتحدّث بها في الأماكن الراقية يخشى على نفسه حسبانًا متخلفًا ، فينزلق إلى التخليط اللغويّ ، ويأتي بكلمات ومصطلحات من اللغات الأجنبية _عند المعارضين_ بالفوقية . وهكذا حُرمت العربية من التفعيل في ساحاتها وميادينها الطبيعية التي خصصت لرعاية الثقافة القومية . فامتدت النظرة (الدونية) من اللغة العربية إلى دور التعليم ، إنّهم في التعليم العام يصنفونها مادة واحدة من حيث وضعها في جدول الدراسة والساعات المخصصة لها ، بل ربما ينزلون بها إلى درجة أدنى في حالات كثيرة ، فاللغة العربية مادة واحدة عندهم وساعاتها قليلة في إطار أهميتها وعلاقاتها بغيرها من المواد ، وكثيراً ماتقع هذه الساعات في آخر اليوم الدراسي أو في أوقات يكون فيها الطلبة مشغولون بأنشطة أخرى ، وكذا في الدراسة الإعدادية ينظرون إليها على أنّها مادة واحدة في بنية المقررات التعليمية وهذه نظرة غير واعية علميًا وتربويًا . فاللغة العربية شجرة ذات فروع متعددة ، كلّ فرع منها له نوع من الاستقلال ونوع من التبعية فهناك الأصوات والصرف والنحو والأدب ، فكلٌّ من هذه المواد ذات خصوصية توجب مقابلتها بما يفي حاجتها من حيث الزمن والدرجة والتعامل معها لبنة من لبنات البناء العام لمقررات الدراسة.

ونرى الابتعاد أو عدم الاهتمام بدراسة الأصوات ومشكلاتها وكيفيات أدائها نطقاً في حين أنّ الأصوات هي اللبنات الأولى المكونة للبناء الكبير ، وأن تعرفها بل إجادتها نطقاً خير سبيل إلى الدخول إلى المستويات الأخرى التي تتداخل معها بل تكوّنها ، ومن ثمّ يحظى الدارس بتجويد لغته واستيعاب قواعدها وسيطرته عليها . وكذلك الاهتمام بقواعد الإملاء وتحسين الخطوط ، فلم يكن لهما أثر في الدراسة ، حتى لو كان هنالك التفات إليهما فهو قاصر ومحدود . فإنَّ الاهتمام بهذين الجانبين له ارتباط وثيق بقواعد اللغة ذاتها ، تأمّل طرائق كتابة الهمزة ومايعرض لها من تغيّرات بحسب موقعها وعلاقتها بما يسبقها أو يلحقها من أصوات ، وكذلك في التفريق بين كتابة حرف الضاد والظاء وكذا التاء المربوطة والهاء المربوطة ...الخ.

كلُّ ذلك جعل الأوراق تختلط في أذهان الدارسين فخرجوا من فصولهم وهم خالو الوفاض ، مشحونة أذهانهم باضطراب لغوي لايفيد في قليل وكثير . وابتعادهم أيضاً عن الاستماع والقراءة ممّا أدَّى إلى ضياع المهارتين الأخرويتين الكتابة والحديث ، كيف يكتب الطالب بلغة سليمة صحيحة ، وهو لم يسمعها ولم يخبرها نطقًا بنفسه ؟ وكيف يستطيع أن يتحدَّث بها وهو لايعرفها المعرفة الكافية ؟ . فاللغة _ بكلّ مستوياتها _ لاتكتسب بالتلقين ، ولا بالتعليم وحده ، وإنما تكتسب بتفعيل ملكتها وتوظيفها التوظيف العلمي ، بتوجيه النظر الدائم المستمر إلى اكتساب هذه المهارات الأربع (السماع، القراءة ، الكتابة ،

الحديث) . واللغة هي حرفة وصنعة ، تكتسب بالخبرة والمران والدربة ، كلُّ ذلك قد فُقِدَ تمامًا وغاب عن طلبة المدارس والجامعات .

فإنَّ التشكيك الذي يثار حول في كفاية العربية الفصحى ؛بأن تكون لغة تكلُّم ومحادثة هو نظير التشكيك في قدرة اللغة العربية على مواكبة الحضارة الحديثة والعلم الحديث . وهو تشكيك لاسند له من تجارب الأمم في التاريخ ، ولاسند له في النظر اللغويّ أصلاً ، بل إنَّ كلَّ الأدلَّة والتجارب تتظافر على نقصه . وإذا كان الدليل التاريخي حول تجربة العربية واتساعها لهضم علوم الأوائل وتطويرها قد أصبح مكروهاً فإنَّ وجهاً آخر من الدليل التاريخي قد يكون مستطرفًا ، وهو دليل نستعيره من باحث من الفلبين يتناول لغتين عالميتين تزهوان اليوم بكلّ البريق والجاذبية ، فكأنّما بلغا الغاية لمن ينشد الكمال في المحادثة والبراعة في الخطاب ، وهما الإنجليزية والفرنسية ؛ فقد كانت اللغة الإنجليزية مجدبة من المصطلحات العلمية حتى القرن السادس عشر ، وكان يقال في اللغة الفرنسية إبَّان القرن السادس عشر إنَّها لغة فظَّة إذا ما قورنت باليونانية ، وكانت الملكة إليزابيث تتحدَّث إلى السفراء الأجانب باللاتينية ، وجعل (كروم ويل) الشاعر(لمتون) كاتب سرِّه باللاتينية (٣١) .ويؤيد هذا في تجربة العصر الحديث مانرى من وفاء اللغة اليابانية بمطالب العصر في جميع وجوه الاستعمال واستغناؤهم عن غيرها . وهذا أقوى شاهد ينبغي أن يوجَّه لأولئك الذين يجدونه صعبًا أن يتخيلوا كيف يمكن للغة غير الإنجليزية أو الألمانية أو الفرنسية أن تفي بحاجات المجتمع الحديث . وليست اليابانية هي اللغة الوحيدة الأخرى التي حققت هذا. ولكن الناس كأنما يظنون أنَّ اللغة قادرة على حمل فكر الأمر الواقع فيها فقط، فإذا وجدوا اللغة العربية تدّخر رصيدًا شعريًا ضخمًا وتتخلَّف عن حمل الفكر العلمي الحديث ، عدّوها لغة عواطف لاتصلح للتعبير العلمي . وإذا وجدوا الفصحى تقوم بوظائف الكتابة ولايستعملها الناس في الحديث اليومي عدّوها غير صالحة لأداء هذه الوظيفة.

فاللغة العربية في العراق مثلاً هي لغة العراقيين الرسمية ، فبها يتكلمون عربًا وغير عرب إلاّ قلَّة من أخواننا الكرد والتركمان . وهؤلاء جميعاً_ مسلمين وغير مسلمين _ لايرون لهم لغة غير لغة الضاد ، فخير مثال على ذلك الأب انستانس ماري الكر ملي ، وعبد المسيح الوزير ، ورفائيل بطي ، ورزوق فرج رزوق وآخرون ، فقد بذلوا جهداً في خدمة هذه اللغة فهذا خير دليل على اعتزاز غير المسلمين من العراقيين بها.

أمّا غير العرب من أخواننا الكرد والتركمان ، فإنّهم ليسوا أخوانًا في الوطن فحسب ، وإنما هم أخوان لنا في الدين كذلك . ومن هنا فاعتزازهم باللغة العربية ، وحرصهم على لغة القرآن والسنة النبوية ، لايقلاّن عن اعتزاز العرب بها ، وحرصهم عليها.

وإذا كانت العربية قد انتشرت في أصقاع متباعدة متناثرة من الكرة الأرضية ونطقت بها أقوام تنتمي إلى جنسيات مختلفة ، خارج حدود البلدان العربية فمن الطبيعي أن يكون انتشارها بين هؤلاء الأخوة أكثر ، وتمكّنها في نفوسهم أقوى ؛ لاجتماع دواعي المواطنة والدين معًا على نشرها وتمكينها.

ولانريد أن نقلّل من شأن اللغتين الكردية والتركمانية ، أو أن نفخر بالعربية عليهما ، ولكنها الحقيقة التي لاسبيل إلى نكرانها ،أو التغاضي عنها.

والحقُّ أنَّ العربية لغتهم ، وليست غريبة عنهم ، ولسنا أولى بها وأحرص عليها منهم ؛لكونها لغة قرآنهم ودينهم ، ولغة المواطنين الذين اختلطوا معهم ، وامتزجوا بهم فلم يكتف هؤلاء الأخوة _ داخل العراق وخارجه_ بتعلُّمها ، وإجادة النطق بها ، وإنما فرضوا حروفها على لغتيهما القوميتين .

إذا كانت الحكومة التركية في وقت ما قد فرضت لأسباب غير مجهولة العدول عن كتابة التركية بالعربية ، واستبدلت بها الحروف اللاتينية ، فإنَّها لم تستطع التخلُّص من الألفاظ العربية التي تغلغلت في لغتها ، وفي هذا ينقل أستاذنا د. مصطفى جواد رأي الشاعر العراقي المعروف معروف الرصافيّ ، فيقول :((ونظر الشيخ معروف الرصافيّ في الكلمات المستعملة في اللسان العثمانيّ فوجدها تنقسم إلى خمسة أقسام ما لم يغيروا لفظه ولا معناه ، وماغيروا لفظه دون معناه ، وماغيروا معناه دون لفظه ، وماوضعوه من عند أنفسهم على قواعد ، وليس هو من كلام العرب)) (٣٢). فإذا كانت اللغة التركية بهذه المثابة فكيف باللغة الكردية التي مازالت تعتمد الحرف العربي في رسم كلماتها؟.

وذهب (الرافعيّ) إلى أنَّ اللغة العربية موجود الأمة ، بأفكارها ومعانيها، وحقائق نفوسها ، ووجودها وجودًا متميزاً قائمًا بخصائصه . (٣٣)

ومن هذا فإنَّه يصحُّ على لغتنا أكثر من غيرها ؛ في أنَّها وجدت مع الحياة العربية منذ نشأتها ، ولازمتها ملازمة الروح للجسد في جميع فترات تطوُّرها عبر كلّ تلك القرون فلم تستبدلها الأمة لغيرها ، ولم تستغن عنها في يوم من أيام حياتها ، فلاقومية لنا قبلها ، ولاقومية لنا بعدها ، فبها توحّد العرب قديمًا ، وبها يتوحّدون اليوم ، ويؤلفون في هذا العالم رقعة من الأرض ، تتحدث بلسان واحد ، وتصوغ أفكارها ، وقوانينها وعواطفها في لغة واحدة . (٣٤)

وخاتمة البحث فإنّ الابتعاد عن اللغة العربية ، إنَّما هو ابتعاد عن حضارة الأمة من حيث لسانها وأدبها ، وثمرات تفكيرها ، على أبعد احتمال . وابتعاد عن كلّ شيء يعنينا ، وعن كلّ تقليد من تقاليدنا وقيمنا الاجتماعية والدينية ، وعلى اللسان والفكر والضمير في ضربة واحدة ؛لأنَّ زوال اللغة _ لاسامح الله_ لايبقي للعربي أو مسلم قوامًا يميزه من سائر الأقوام ، ولايعصمه من أن يذوب في غمار الأمم ، فلاتبقى لها باقية ، من بيان ولاعرف ، ولامعرفة ، ولاإيمان .

ولنتحدّى الكائدين بلغتنا ، ونقول : أنّها لغة التنزيل الكريم ولغة الحديث النبوي الشريف وماشكّ أحد من الناس _ قديماً وحديثًا_في الحقيقة هذه ، ولاتردُد في الإقرار بها ، كيما يرى المرء في نفسه حاجة لإثباتها أو التدليل عليها أكسبها قدسية في نفوس المسلمين كافة ، عربًا وغير عرب ، وصار لزامًا على غير العربي منهم أن يتعلّمها ، كي يقف على تعاليم دينه ، ويتمكَّن من أداء فريضة الصلاة التي لاتصحُّ بغير قراءة شيء من القرآن ويتقرَّب إلى الله تعالى بتلاوته في غير الصلاة.

هوامش البحث

١) لسان العرب (عصر).

٢) الفصحى المعاصرة،د. شوقي ضيف ١٩.

٣) مستويات العربية المعاصرة في مصر ، د. السعيد البدوي١٢٧.

٤) علم اللغة العام ٢٥٥، د.عبد الصبور شاهين ، ودراسات في علم اللغة، د كمال بشر،١٢٣،وألفاظ الحركة في العربية المعاصرة، د. محمد محمد داوود ٣٧.

٥) العربية الفصحى الحديثة (بحوث في تطور الألفاظ والأساليب لــ (باروسلان ستتكيفتش) ترجمة وتعليق ، د. محمد حسن عبد العزيز ١٩٨٥م.

٦) مستقبل اللغة العربية ، د. إبراهيم أنيس ٤٨.

٧) الإلفاظ الدالة على الكلام في اللغة العربية المعاصرة ، دراسة دلالية وتأصيلية ،٦٧.

٨) العربية الفصحى المعاصرة ، د. أحمد محمد قدوري.١٨.

٩) الجوانب الدلالية في نقد الشعر في القرن الرابع الهجري١١٩.

١٠) العربية الفصحى المعاصرة ،أحمد محمد قدوري ١٨.

١١) مشكلات اللغة العربية المعاصرة، د. مجد محمد الباكير البرازي ٩.

١٢) اللغة الإعلامية وعلم الإعلام اللغوي ، د. عبد العزيز شرف ١٨٨.

١٣) اللغة العربية بين الموضوع والأدء ١/١٤٣ ، د. أحمد مختارعمر١/١٤٥، مجلة فصول ، مج ٤ ، ع٤، ١٩٨٤.

١٤) المرجع نفسه ، الموضع نفسه.

١٥) اللغة الإعلامية ١٨٨.

١٦) اللغة العربية بين الموضوع والأداء ١٤٢، ١٤٣.

١٧) القدرة على استيعاب علوم العصر ، مقال بمجلة الأمة ٦، ع٦١، د. عبدالصبور شاهين، وعلم اللغة العام ٢٥٥.

١٨) دراسات لسانية تطبيقية د. مازن الوعر ٢٩٠.

١٩) أخطاء اللغة العربية المعاصرة ٥٦ ، د. أحمد مختار عمر.

٢٠) اللغة العربية والوعي القومي ، لمجموعة من الباحثين ٢٢٤.

٢١) الإمتاع والمؤانسة ، لأبي حيان التوحيدي ١/ ١٢١ــ١٢٢.

٢٢) سعة العربية وغناها وأصالتها . بين القانون والمجتمع ، حسين علي محفوظ٦٥.

٢٣) فلسفة اللغة العربية ، عثمان أمين ٧ــ ٨ نقلا عن ماسينون ، المؤلفات الصغرى ٦٢٥بالفرنسية.

٢٤) .المصدر نفسه ٩ ــ ١٢، نقلا عن المقال الذي نشره هنري لوسيل في ٣/٦/ ١٩٦٤، لجريدة لوميند الفرنسية.

٢٥) المصدر نفسه ، الموضع نفسه .

٢٦) المصدر نفسه ، الموضع نفسه .

٢٧) اللغة لفندريس ٤٢١.

٢٨) فقه اللغة ، د. حاتم صالح الضامن ٩٦.

٢٩) فقه اللغة ،د. علي عبد الواحد وافي ٢٤٥.

٣٠) المصدر نفسه ، ٢٤١.

٣١) قضية التحوّل الى الفصحى في العالم العربي الحديث ،د.نهاد الموسى ١٨٤

٣٢) المباحث اللغوية في العراق ومشكلة اللغة العصرية ، د. مصطفى جواد ٦٤.واللغة العربية القومية ٢٨١.

٣٣) وحي القلم ، مصطفى صا دق الرافعي ٣٦/٣.

٣٤) فقه

المصادر والمراجع

- أخطاء اللغة العربية المعاصرة عند الكتّاب والإذاعيين ،د،. أحمد مختار عمر ، ط٢، القاهرة ، عـالم الكتـب ١٩٩٣م.
- ألفاظ الحركة في العربية المعاصرة ،د. محمّد محمّد داوود. القاهرة ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيـع ، ٢٠٠١م.
- الألفاظ الدالة على الكلام في اللغة العربية المعاصرة ، دراسة دلالية وتأصيلية ، د. محمّد محمّد داوود .
- الإمتاع والمؤانسة ، لأبي حيان التوحيديّ ، إختار النصوص وقدّم لها إبراهيم الكيلاني ، دمشق ، منـشورات وزارة الثقافة والإرشاد القوميّ ١٩٨٧م.
- دراسات في علم اللغة، د. كمال بشر ، القاهرة ، ١٩٦٩م.
- دراسات لسانية تطبيقية ، د. مازن الوعر ، دمشق ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ١٩٨٩م.
- سعة العربية وغناها وأصالتها ، بين القانون والمجتمع ، حسين علي محفوظ ، مؤتمر تنفيذ قانون سلامة اللغة العربية ، ١٩٧٩م.
- العربية الفصحى الحديثة (بحوث في تطوّر الألفاظ والأساليب)لــ (جار وسلاف ستتكيفتش) ترجمة وتعليـق ، د. محمّ حسن عبد العزيز ، الجيزة ، دار النمر للطباعة ، ١٩٨٥م.
- العربية الفصحى المعاصرة ،دراسة في تطوُّرها الدلالي من خلال شعر الأخطل الصغير، لبنان ، الدار العربية للكتاب ، ١٩٩١م.
- الفصحى المعاصرة ، د. شوقي ضيف ، محاضر جلسات المجمع العلمي في القــاهرة (دورة ٤٤) ، القــاهرة مجمع اللغة العربية الإدارة العامة للتحرير ، ١٩٧٨م.
- فقه اللغة ، د. حاتم صالح الضامن ، دار الحكمة للطباعة والنشر ، الموصل ، ١٩٩٠م.
- فقه اللغة ، د. علي عبد الواحد وافي ، القاهرة ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ،ط٧. ١٩٧٠م.

- فقه اللغة وخصائص العربية ، د. محمّد مبارك ، دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية ، وعرض لمنهج العربية الأصيل في التجديد والتوليد ، ط٤، بيروت ، دار الفكر الحديث، ١٩٧٠م.
- فلسفة اللغة العربية ، عثمان أمين ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٥م.
- فلسفة اللغة العربية ، نقلاً عن المقال الذي نشره هنري لوسيل في ١٩٦٤/٦/٣م.
- في علم اللغة العام ، د. عبد الصبور شاهين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٣، ١٩٨٠م.
- القدرة على استيعاب علوم العصر ، مقال بمجلة الأمة ، ع٦١، د. عبد الصبور شاهين .
- قضية التحول إلى الفصحى في العالم الحديث ، د. نهاد الموسى ، دار الفكر للنشر والطباعة ، ط١، عمَّان ١٩٨٧م.
- لسان العرب ، ابن منظور (٧١١هـ) ، طبعة مراجعة ومصححة ، بمعرفة نخبة من الأساتذة المتخصصين ، دار الحديث ، القاهرة ٢٠٠٣م.
- اللغة ، فندريس ، تعريب عبد الحميد الدواخلي ، ومحمد القصاص مكتبة الانجلو المصرية ١٩٩٠م.
- اللغة الإعلامية وعلم الإعلام اللغويّ ،د. عبد العزيز شرف ، القاهرة ، المركز الثقافي الجامعي ، ١٩٨٠م.
- اللغة العربية بين الموضوع والإداء ، د. أحمد مختار عمر ، مجلة فصول ، مج٤، ع٤، ١٩٨٤م.
- اللغة العربية والوعي القومي لمجموعة من الباحثين ، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية بالاشتراك مع المجمع العلمي العراقي ، ومعهد البحوث والدراسات العربية ، ط١ ، بيروت ، ١٩٨٤م.
- اللغة والقومية ، بشر فارس المقتطف ، ١٩٤٤م.
- المؤلفات الصغرى ، بيروت ، دار معارف ، ١٩٦٣ م، مترجمة عن الفرنسية .
- المباحث اللغوية في العراق ومشكلة اللغة العصرية ، د. مصطفى جواد ، بغداد ،ط٢، مطبعة العاني ١٩٦٥م.
- مستقبل اللغة العربية المشتركة ، د. إبراهيم أنيس ، القاهرة ، ١٩٦٠م
- مستويات العربية المعاصرة في مصر ، بحث في علاقة اللغة بالحضارة ، د. السعيد محمّد بدوي ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٣م.
- مشكلات اللغة العربية المعاصرة ، د. مجد محمّد الباكير البرازيّ، عمّان ، مكتبة الرسالة الحديثة ، ١٩٨٩ م.
- نحو وعي لغوي ، د. مازن المبارك ، دمشق ، مكتبة الفارابيّ، ١٩٧٠م.
- وحي القلم ، مصطفى صادق الرافعيّ ، القاهرة ، دار المعارف ، دت.